معنى قوله سبحانه وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا

كتبه غريب بتاريخ الثلاثاء ٦ شوال ١٤٤٢

نواصل الرد على أشهر شبهات القائلين بالعذر بالجهل، والشبهة التي سوف نتحدث في هذا المقال هي قولهم أن الحجة على العباد إنما هي في بلوغ الرسالة بدليل قوله سبحانه:

﴿ مَنِ اهتَدى فَإِنَّما يَهتَدي لِنَفسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيها وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزرَ أُخرى وَما كُنّا مُعَذِّبينَ حَتّى نَبعَثَ رَسولًا ﴾

[الإسراء: ١٥]

والتي سوف نناقشها من خلال المحاور التالية:

- جاهل أم معرض؟
- معنى قوله سبحانه: وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا

جاهل أم معرض؟

قبل الحديث عن معنى قوله سبحانه:

﴿ مَنِ اهتَدى فَإِنَّما يَهتَدي لِنَفسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيها وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزرَ أُخرى وَما كُنّا مُعَذِّبينَ حَتّى نَبعَثَ رَسولًا ﴾

[الإسراء: ١٥]

ينبغي أولا أن نعرف هل تحققت هذه الآية اليوم فينا، بمعنى أن اللّٰه أرسل رسولا إلينا، ووصلتنا رسالته كاملة غير منقوصة، أم أننا أصحاب فترة كما يحاول أصحاب العذر بالجهل إيهامنا؟

فهم يقولون أن فاعل الشرك, لا يحكم عليه بالشرك حتى يبين له أن فعله هذا شرك, فإن أصر عليه ساعتها يصبح مشركاً, أما قبل ذلك فلا.

والحقيقة أنه بالنظر إلى الواقع نجد أن رسالة اللّٰه إلينا وصلت كل واحد منا فعلاً, وما عليه إلا أن يقرأها ويتعلمها ليعرف ما يريده اللّٰه منه.

ولكن الذي يحدث أن الناس معرضة عن رسالة ربها, فالرسالة أتت, ولكن الناس أعرضوا, ثم قالوا نحن جهال.

نعم جهال لأنهم أعرضوا عن تعلم الرسالة, فقد بُعث إليهم رسولا شاهدا عليهم, ووصلتهم رسالته, لذلك شرطُه:

حتّى نَبْعَثَ رَسُولاً

قد تحقق بالفعل, ومن ثم فإنه حتى باعتبار أن الحجة هي الرسالة, فإنه لا حجة للقائلين بالعذر بالجهل فيها, لأن الرسالة وصلت وهي قائمة بذاتها.

معنى قوله سبحانه: وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا

إن المقصود بقوله "معذبين" العذاب في الدنيا الذي يعم الكافرين, وليس العذاب الأخروي بدليل:

أولا السياق فقد قال ربنا عز وجل في الآية التي بعدها:

﴿ وَإِذا أَرَدنا أَن نُهلِكَ قَريَةً أَمَرنا مُترَفيها فَفَسَقوا فيها فَحَقَّ عَلَيهَا القَولُ فَدَمَّرناها تَدميرًا ﴾

[الإسراء: ١٦]

ثانيا فسره ربنا سبحانه في قوله:

﴿ وَكَم أَهلَكنا مِن قَريَةٍ بَطِرَت مَعيشَتَها فَتِلكَ مَساكِنُهُم لَم تُسكَن مِن بَعدِهِم إِلّا قَليلًا وَكُنّا نَحنُ الوارِثينَ۝وَما كانَ رَبُّكَ مُهلِكَ القُرى حَتّى يَبعَثَ في أُمِّها رَسولًا يَتلو عَلَيهِم آياتِنا وَما كُنّا مُهلِكِي القُرى إِلّا وَأَهلُها ظالِمونَ ﴾

[القصص: ٥٨-٥٩]

فالعذاب المقصود هو العذاب الشامل الذي بصيب الكفار, كالطوفان الذي أصاب قوم نوح, وكالغرق الذي أصاب فرعون وغيرهم

ثالثا أن الحجة في التوحيد قائمة بالميثاق الأول:

﴿ وَإِذ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَني آدَمَ مِن ظُهورِهِم ذُرِّيَّتَهُم وَأَشهَدَهُم عَلى أَنفُسِهِم أَلَستُ بِرَبِّكُم قالوا بَلى شَهِدنا أَن تَقولوا يَومَ القِيامَةِ إِنّا كُنّا عَن هذا غافِلينَ۝أَو تَقولوا إِنَّما أَشرَكَ آباؤُنا مِن قَبلُ وَكُنّا ذُرِّيَّةً مِن بَعدِهِم أَفَتُهلِكُنا بِما فَعَلَ المُبطِلونَ۝وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ وَلَعَلَّهُم يَرجِعونَ ﴾

[الأعراف: ١٧٢-١٧٤]

فمن مات مشركا ولو لم يأتيه رسول, ليست له حجة عند الله, بدليل هذه الآية, وبدليل حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحيح:

عن ثابت البناني، عن أنس، قال: «قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم: أين أبي؟ قال: في النار, قال: فلما رأى ما في وجهه قال: إن أبي وأباك في النار».

تخريج الحديث من هنا

فهذا أبو الأعرابي وأبو رسول الله صلى الله عليه وسلم كلاهما في النار, وكلاهما لم يأته رسول من عند الله, مما يؤكد أن الحجة قائمة على الخلق بالميثاق, وأن المراد بالعذاب في قوله:

وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا

هو العذاب الدنيوي الشامل.

وأما احتجاج البعض بالحديث:

عن الأحنف بن قيس عن الأسود بن سريع أن النبي صلى الله عليه وسلم قال أربعة يوم القيامة : رجل أصم لا يسمع شيئا , ورجل أحمق , ورجل هرم , ورجل مات في فترة , فأما الأصم فيقول ربي لقد جاء الإسلام وما أسمع شيئا , وأما الأحمق فيقول ربي لقد جاء الإسلام والصبيان يحذفوني بالبعر , وأما الهرم فيقول ربي لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئا , وأما الذي مات بالفترة فيقول رب ما أتاني لك رسول , فيأخذ

مواثيقهم ليطيعنه فيرسل إليهم أن ادخلوا النار قال فو الذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليه بردا وسلاما

فهو احتجاج باطل, لأن هذا الحديث حديث ضعيف كما سبق وبينا هنا.